دور النظريـــة السياسيـــة الشيعية فـي ظهور المقاومة الشيعية اللبنانيـة

د. صلاح الدين عبدالرحمن الدومة *

مستخلص البحث

إن الهدف الرئيسي لهذا البحث، هو دراسة دور النظرية السياسية الشعية في نجاح المقاومة اللبنانية. بـــدأت الدراســة بوصف لبنان دولة وأرضا وشعبا ، ثم بحثت العلاقة التاريخية بين لبنان وإيران.وتوصلت الدراسة إلى أن الشيعة الأمامية (العلميــة) نشأت أصلا في لبنان ثم انتقلت إلى إيران، حيث حدث تغيرّ في العقيدة الأمامية في مرحلة من مراحل تاريخها، فبدلا مــن انتظــار المهدى المنتظر تحولت الشيعة شعبا (لإنشاء الدولة) الأمامية، ثم الثورة مباشرة. واستفاد حزب الله من هــذا الاعتقــاد في إخــراج مقاتلين حاربوا في جنوب لبنان، الأمر الذي أدى إلى انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان.

ABSTRACT:

The main purpose of this research is to study the role of Shi‘a political theory in the success of Southern Lebenan resistance. This theory successfully made remarkable change in the beleives and doctorines of all Shi‘a of Lebenan in general and the Southern Lebenan Shi‘a in pacticular. **Accordingly, Hizbullah established its own forces , which have fought Israil troops in the Southern Lebenan . This fighting forced Israil to withdraw its troops from Southern Lebenan.**

That was a main success of Shi‘a resistance in Southern Lebenan.

المقدمة:

في التاريخ القريب قامت الدولة اللبنانية على ركيزة أساسية هي الطائفية، وولد الاستقلال والميثاق في أحضانها ليجســد التفسخ الوطني في إطار علاقات سياسية تعمل على إبقاء هذا الأمر واستمراريته. هذا النهج السياسي وقف عائقا أمام تطوير الواقــع الطائفي ومحاولة تجاوزه، وحمل الاستقلال معه كل أمراض التخلف والتعصب والتفرقة، لأن أبطاله لم يعملــوا علــى اســتئصال الرواسب وإقامة الوطن على قاعدة الانتماء إليه، بل اكتفوا بوحدتهم الفوقية وتركوا التشتت الطائفي في القاعدة، فقامت لبنان على قاعدة تعدد الطوائف المتعايشة على أرض واحدة تقتسم الغنائم فيما بينها. إن الاستقلال والدستور قد قاما على ركيزتين أساســيتين هما:

---

* أستاذ مشارك كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة أم درمان الإسلامية

تجميع الطوائف وتجميع المناطق، وشتان ما بين التجميع والانصهار. لقد استبدلت الوحدة الوطنية – كما هو الحال في دول أخرى– بوحدة الطوائف المتعايشة لتوسع نشاطاتها ولتزيد من انقسام المواطنين ، ففي الحقل التربوي بقي لكل طائفة مؤسساتها التربوية لتلقن المواطنين ثقافات مختلفة!! وعلى الصعيد التنظيمي السياسي صارت لبعض الطوائف مجالس محلية تحولت إلى مؤسسات سياسية تسهم في السلطة بدرجة أو بأخرى.

وعلى الصعيد السكاني بقيت المدن الكبرى ذات طابع طائفي ، فعلى الرغم من احتوائها على اختلاط سكاني من مختلف الطوائف إلا أنها تمتعت بغالبية سكانية من طائفة معينة، أو تضمنت أحياء سكانية لكل طائفة، أو لكل مذهب حي يجمع أبناء المذهب نفسه، وهذا الأمر قد سهل فيما بعد الانقسام الجغرافي. حيث هجرت كل منطقة الأقليات الموجودة فيها من الطوائف الأخرى ، مما جعل السلطة عبارة عن حكم بين مختلف الأطراف (الطوائف) لا سلطة دولة بيدها المبادرة ولا تستطيع فرض قرار على الجميع، وكما تقدم فإن في لبنان ازدواجية سلطوية ففيها قامت سلطة الدولة وتعايشت جنبا إلى جنب مع سلطة الطائفة ، وكثيرا ما أذعنت سلطة الدولة لسلطة الطائفة البارعة في توظيف التمايزات الدينية لأغراض سياسية.

والطائفية في لبنان تلعب دور الحزب السياسي المدافع عن مصالح الأفراد ، وتحل مشكلة انتماء الفرد طالما أنه لا توجد أطر أخرى أكثر فعالية لتنظيم حياته وضمان توازنه المادي والنفسي.وهكذا يندفع الفرد إلى أحضان الطائفية ، فالتخلي عنها يبدو كأنه ضياع لآلية التضامن الأسري والعائلي إذا لم يسنده ظهور مؤسسات تضامن جماعي نقابي ومدني أعلى، كما عنى ذلك العزلة للأفراد، وكذلك يعني الاغتراب النفسي والاجتماعي. ولقد عجزت الدولة اللبنانية عن بناء الإطار الفكري والسياسي والإداري والاقتصادي الذي يوحد الأمة ويبني إجماعا، إنها لم تمتلك رسالة اجتماعية تسمح لها بأن تكون دولة الأمة لا دولة الجماعات. وبدلا من أن ترتفع الدولة (باعتبارها مؤسسة سياسية وسلطة) فوق التمايزات والتناقضات انخرطت هي نفسها بفعل طبيعة بنيتها وتركيبتها العصبية في التناقضات التي أخذت تمزقها، أو بالأحرى تبرز تمزقها الداخلي المستور بإيديولوجية الوفاق والتعايش.

لقد اعترفت الدولة القانونية في لبنان بتعدد القوى السياسية، ومنحتها حق التنافس الحر حتى بلغ حد الفوضى المسلحة، فالتدريب والتسليح غير المشروع، وقيادة الجيوش غير النظامية، وتخريج دفعات من الميليشيات اللبنانية كان يتم في احتفالات علنية تنقلها الصحف اليومية تحت سمع الدولة وبصرها، إن نشوب الحرب بهذه الضراوة والشراسة، وقدرتها على الاستمرار لأعوام طويلة ما كان ليكون ممكنا لو لا وجود ميليشيات أنشئت بغرض أن تلعب دورا ينتظرها. وعلى أثر الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة على الفلسطينيين داخل الأراضي اللبنانية، منحتهم الدولة حق الدفاع عن أنفسهم ضد الاعتداءات الخارجية عليهم، بدلا من أن تكون هي المسؤولة عن حماية كل من يقطن داخل حدودها سواء بالطرق السلمية أو بالقوة، (فكل دولة) عادة تقدم نفسها مركزا للاستقطاب الوحيد لممارسة العنف القانوني في المجتمع (أي الدولة هي الجهة الوحيدة التي لها حق احتكار القوة القهرية لتطبيق القانون)، فعنف الدولة له أساليبه (أي قانونية) لكن الدولة اللبنانية بتركيبتها الضعيفة سلطويا سمحت بظهور العنف غير الشرعي، أي خارج إطار سلطة الدولة وهيأت له فرص النمو ومهدت للإحتراب بين اللبنانيين عند ما وقفت عاجزة من استعداداتهم لحرب الخطر الخارجي وكذلك حرب بعضهم بعضا، وهي بتركيبتها الطائفية الحساسة لم تستطع التعامل مع القضية الفلسطينية كما تعاملت معها سائر الدول العربية، فمهدت بذلك لحرب الآخرين على الأرض اللبنانية حتى الأحزاب التي تؤكد أنها غير طائفية من حيث المبدأ والغاية، وتلك التي ترفع شعار العلمنة والديمقراطية والمساواة لم تفلت من فخ الطائفية إلا قليلا. والظاهرة البارزة التي نشأت في ظل الحرب هي تعدد الأحزاب والمنظمات والحركات بشكل لم يسبق له مثيل. والجدير ذكره هو أن إمعان الأحزاب والمنظمات في تحديد هويتها الطائفية ربما كان لاستقطاب أكبر عدد من الأتباع ، أو لإبراز خصوصيتها. وفي جميع الأحوال انخرطت تلك الأحزاب في لعبة الطائفية نفسها التي استخدمها الإقطاع السياسي لإحكام سيطرته وتثبيت مواقعه. أما الأحزاب العلمانية فإن

كل منها قد اتخذ صبغة القطاع الطائفي (الكانتون) الذي يوجد داخل حدوده(١).

وحددت الأحزاب والميليشيات مناطق نفوذ لها، وأخذت تثبت مواقعها داخلها، واعتبارا من عام ١٩٨٤م، أخذت الخطوط الفاصلة بين مناطق النفوذ تتضح، ففي بيروت وضواحيها وفي جزء من جنوب لبنان هناك سيطرة لقوات أمل الشيعية وحلفائها، وفي ضاحية بيروت الجنوبية وبعض مناطق البقاع والهرمل السيطرة لقوات حزب الله الشيعية، وفي بيروت الشرقية وضواحيها وبعض مناطق الجبل السيطرة للقوات اللبنانية المارونية على جزء منها، وسيطرة فئة من الجيش اللبناني على الجزء الآخر في عام ١٩٩٠م، وفي الشوف السيطرة لقوات الحزب التقدمي الاشتراكي الدرزية وحلفائها، وفي الشمال السيطرة للقوات المتمردة المارونية المعادية للقوات اللبنانية، وفي أقصى الجنوب هناك الحزام الأمني الذي صنعته إسرائيل بينها وبين جنوب لبنان يسيطر عليه جيش لبنان الجنوبي المدعوم من قبل إسرائيل.

فماذا بقي للدولة من الأراضي لكي تفرض عليها سيطرتها وسط هذه البانوراما السلطوية، فمن جهة شكلت الطائفية أفق الدولة اللبنانية الذي استوحت منه تصوراتها للمجتمع الموجود، وللتنظيم الاجتماعي والتوزيع البيروقراطي، كي تجند طائفية مرتهنة لجماعاتها المتوجهة عقليا وعاطفيا نحو الذات الطائفية المنغلقة ومن جهة أخرى رأت أن تجند جيشا عقلانيا عسكريا واحدا، وجيشا مدنيا منظما واحدا (البيروقراطيين وموظفي الدولة).

ثم بدأ طرح فكرة إلغاء الطائفية السياسية، لأنها سبب البلاء، ولأنها تمنع الانصهار الوطني ، وتحقيق المواطنة الحقة، والمطالبون بإلغاء الطائفية السياسية أغلبهم في مواقع طائفية بعضها شديد العصبية، فالأحزاب المطالبة بإلغاء الطائفية أحزاب طائفية بتركيبتها، وبديهي أن يكون المطلب الصادر من موقع طائفي هو طائفي أيا كان التعبير اللفظي عنه، ومطلب إلغاء الطائفية يعني تحديدا استبدالها بديمقراطية تعددية تعني سيطرة جهة ما على الحكم والإدارة بحكم العدد، أو بحكم ما يظن من غلبة عددية، بالديمقراطية الإصلاحية المركبة المعقدة أساسا للحياة المشتركة اللبنانية(٢).

هذا الواقع المتأزم بات مرتعا خصبا لأحلام كل طائفة في السيطرة على لبنان، حيث لا تمثل الطائفية قوة إلا بمددها الخارجي وتبعيتها الدينية والسياسية والمالية. وكانت الطائفة الشيعية التي يمثلها حزب الله سياسيا وعسكريا (وهي طليعة المقاومة اللبنانية المنتصرة وهي موضوع الحديث) من تلك الطوائف التي أرادت أو بالأصح أريد منها أن تحقق الحكم بتكوين دولة تقوم على تبني المذهب الجعفري الأثني عشري منهجا ونظاما، فلبنان أريد بها أن تكون أما دولة نصرانية عربية بميول غربية وسط مجتمع مسلم ضخم، وإما دولة شيعية عربية بميول ايرانية وسط تجمع سني ضخم. والدولة الأولى النصرانية لعل لها حديث آخر ، أما المراد الثاني (الدولة الشيعية العربية بميول ايرانية) فلابد من الوقوف عندها أولا على بعض المرتكزات حتى تتضح الصورة من مبتداها وصولا ألي منتهاها.

تاريخ العلاقة اللبنانية الإيرانية :

حين استولى الصفويون على الحكم في إيران، في مطلع القرن السادس عشر وجعلوا من التشيع الأمامي دين الدولة والأمة، وحصنوا إيران به من الفتح العثماني (التركي السني) كاد التشيع أن يتلاشى، سواء في مدارس النجف أو مدارس خراسان، فعمد الشاه إسماعيل ألي استقدام علماء من جبل عامل في جنوب لبنان لتدريس الفقه الأمامي فكان منهم : (بهاء الدين العاملي محمد بن الحسين بن عبدالصمد٩٥٣ هـ ١٠٣١ هـ) الذي اصبح شيخ الإسلام في أصفهان في عهد الشاه عباس الكبير والمحقق

الكركي (علي بن الحسين بن عبد العالي العاملي توفي ٩٤٠هـ الذي قدم النجف ثم رحل إلى بلاد العجم لترويج المذهب والسلطان الشاه إسماعيل الصفوي الذي مكنه من إقامة الدين الشيعي الإمامي والترويج لأحكامه،وكان يرغب عامة الناس في تعلم شرائع الدين ومناسك الإسلام، ويحثهم على ذلك بطريق الالتزام وكان أن جعل في كل بلدة وقرية إماما يصلي بالناس ويعلمهم شرائع الدين، وبالغ في الترويج لمذهب الإمامية، بحيث لقبه بعضهم بمخترع مذهب الشيعة(٣).

ومنطقة جبل عامل أو (عاملة) في قلب جنوب لبنان كانت أهم مرجعية شيعية في العالم بين القرنين الميلاديين الرابع عشر والسادس عشر، ومع بداية هذا التعاون مع الدولة الصفوية أبيد الآلاف من السنة من العامة والعلماء، ففي تبريز العاصمة وحدها كانت السنة لا يقلون عن ٦٥% من السكان، وقد قتل منهم في يوم واحد. ألف سني، كما أجبر الألوف على التحول القسري إلى مذهب الإمامية(٤) . كما كانت هناك مؤامرات عديدة وتعاونٌ مع قوى غربية على إسقاط الدولة العثمانية، وهي من الأمور غير الخافية والمعروفة في التاريخ.

وقد استهوت التجربة الصفوية الشيعة المضطهدين في العراق وجبل عامل في لبنان والبحرين، وذهب العلماء ليدعموا تأسيس الدولة الشيعية الصفوية الوليدة(٥) . ويمكن تجاوز تلك الحقبة الزمنية البعيدة حتى تصل إلى صورة قريبة تبين العلاقة الحميمة والوطيدة التي يحاول نفر من الناس فصلها وتغيير الواقع وحقائقه، فقد قيل لحسن نصر الله الأمين العام لحزب الله إن دور حزبه سوف لن ينتهي ، لأنه حزب مستورد من الخارج (سوريا ، إيران) فقال: (لنكن واضحين ونحكي الحقائق، فالفكر الذي ينتمي إليه حزب الله هو الفكر الإسلامي وهذا الفكر لم يأت من موسكو أيام الاشتراكية ولا من لندن ولا باريس ولا حتى من واشنطن في زمن الليبرالية، هو فكر الأمة التي ينتمي إليها لبنان، إذا نحن لم نستورد فكرا، وإذا كان هناك من يقول أن فكر حزب الله إيراني أقول له: إن هذه مغالطة لأن الفكر في إيران هو الفكر الإسلامي الذي أخذه المسلمون إلى إيران ، وحتى هذا الفكر خاص بعلماء جبل عامل. واللبنانيون هم الذين كان لهم التأثير الكبير في إيران على المستوى الحضاري والديني في القرون السابقة، أين هو الاستيراد ؟ هذا الحزب كوادرهُ وقياداته وشهداؤه لبنانيونَ(٦).

وفي إحدى الاحتفالات التأبينية التي تقام في لبنان قال إمام مسجد الإمام المهدي الشيخ حسن طراد في خطبة الجمعة: (إن إيران ولبنان شعب واحد وبلد واحد ، وكما قال أحد العلماء الأعلام: إننا سندعم لبنان كما ندعم مقاطعاتنا الإيرانية سياسيا وعسكريا (٧) . وفي مناسبة تابينية أخرى قال الناطق باسم حزب الله (وفي ذلك الوقت) وهو إبراهيم الأمين (نحن لا نقول إننا في جزء من إيران نحن إيران في لبنان ولبنان في إيران (٨) .ويقول محمد حسين فضل الله المرشد الروحي لحزب الله (إن علاقة قديمة مع قادة إيران الإسلامية بدأت قبل قيام الجمهورية الإسلامية، إنها علاقة صداقة وثيقة متبادلة، ورأي ينسجم في الفكر الإيراني ويسير في نفس إتجاه سياسته) (٩). يقول حسن نصر الله: (إننا نرى في إيران الدولة التي تحكم بالإسلام والدولة التي تناصر المسلمين والعرب، وعلاقتنا بالنظام علاقة تعاون، ولنا صداقات مع أركانه ونتواصل معه، كما أن المرجعية الدينية هناك تشكل الغطاء الديني والشرعي لكفاحنا ونضالنا) (١٠). ويؤمن على كلام أمين الحزب مساعد وزير الخارجية الإيراني للشؤون العربية والأفريقية (في ذلك الوقت) د. محمد صدر فيقول: (إن السيد حسن نصر الله يتمتع بشعبية واسعة في إيران كما تربطنا به علاقات متميزة) (١١). وقد حذر علي خامنئي مرشد الثورة من إضعاف المقاومة الإسلامية ، وقال: (يجب التيقظ ومنع الأعداء من ذلك، إن شعلة المقاومة يجب أن لا تنطفئ لأن أولئك الأبطال واجب على إيران مساعدتهم) (١٢) . فهكذا يتبين الترابط المتكامل بين إيران الثورة وحزب الله وشيعة لبنان، فقد أصبحت إيران الأم الرؤوم والحضن الدافئ والمرعى الخصيب والنموذج الذي يتطلع إليه عموم الشيعة، فهي القبلة الدينية والسياسية لهم.

اليأس من الانتظار:

في السطور التالية يتم التعرض لقضية مهمة وهو التبديل أو التغيير الكبير الذي حدث في عقيدة ومنهج الشيعة الاثني عشرية والذي حولهم من طائفة على هامش التاريخ بفعل (نظرية الانتظار)، بعد دخول محمد بن الحسن العسكري السراداب وغيابه (على حد قولهم) إلى طائفة ثورية تريد تغيير العالم كله ومواجهة قوى الاستكبار في العالم وإثارته بالإسلام الصحيح (كما يعتقدون)، وتطهير الأرض من رجس اليهود، وقد كان لحزب الله نصيب وافر من هذه الشعارات الرنانة والمواجهة المدعاة.

وتقوم نظرية الانتظار و(التبعية) على تحريم الثورة والإمامة والجهاد وإقامة الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلاة الجمعة إلى أن يظهر الإمام الذي دخل السراداب وقد تأثر الفكر السياسي الشيعي تأثراً كبيراً بنظرية وجود الإمام المهدي محمد بن الحسن العسكري داخل السراداب، واتسم لقرون طويلة بالسلبية المطلقة ، وذلك لأن هذه النظرية قد انبثقت من رحم النظرية الإمامية التي تحتم وجود إمام معصوم معين من قبل الله، ولاتجيز للأمة أن تعين إماما أو تنتخبه، لأنه يجب أن يكون معصوما، و(الأمة) لا تعرف المعصوم وينحصر تعيينه من قبل الله، ولذلك اضطر الإماميون إلى افتراض الإمام الثاني عشر، بالرغم من عدم وجود أدلة علمية كافية على وجوده كما يقول المعارضون.

وقد كان من الطبيعي أن يترتب على ذلك القول بانتظار الإمام الغائب تحريم العمل السياسي، أو السعي لإقامة الدولة الإسلامية في عصر الغيبة، وهذا ما حدث بالفعل حيث أحجم النواب الخاصون بالإمام عن القيام بأي نشاط سياسي في فترة الغيبة الصغرى، ولم يفكروا بأي حركة ثورية، في الوقت الذي كان فيه الشيعة الزيدية والإسماعيلية يؤسسون دولا في اليمن وشمال أفريقيا وطبرستان. لقد كانت نظرية انتظار الإمام الغائب بمعناها السلبي المطلق تشكل الوجه الآخر للإيمان بوجود الإمام المعصوم، ولازمة من لوازمها، ولذلك فقد اتخذ المتكلمون الذين آمنوا بهذه النظرية موقفا سلبيا من مسألة الدولة في عصر الغيبة، وأصروا على التمسك بموقف الانتظار حتى خروج المهدي الغائب.

وقد نسبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (افضل أعمال أمتي انتظار فرج الله عز وجل) ويعنون بذلك خروج الغائب المنتظر، وجعلوا الانتظار أحب الأعمال إلى الله ، والمنتظرون لظهوره أفضل أهل كل زمان (١٣). وبالرغم من قيام الدولة البويهية الشيعية في القرن الرابع الهجرى، وسيطرتها على الدولة العباسية، فإن العلماء الأماميون ظلوا متمسكين بنظرية الانتظار وتحريم العمل السياسي، وقد قال محمد بن أبي زينب النعماني المتوفي سنة ٣٤٠ هـ في كتابه (الغيبة) إن أمر الوصية الإمامية بعهد من الله تعالى وباختياره لا من خلقه ولا باختيارهم، فمن إختار غير مختار الله وخالف أمر الله سبحانه، ورد مورد الظالمين والمنافقين الحالين في ناره) وقال: (كل بيعة قبل ظهور الغائب فإنها بيعة كفر ونفاق وخديعة)، وقال: (والله لا يخرج أحد منا قبل خروج الغائب إلا كان مثله كمثل فرخ طار من وكره قبل أن يستوي جناحاه فأخذه الصبيان فعبثوا به(١٤).

وجاء في كتاب بحر الأنوار عن المفضل بن عمر عن الصادق أنه قال: (يا مفضل كل بيعة قبل ظهور الغائب فهي بيعة كفر ونفاق وخديعة، لعن الله البايع والمبايع له(١٥). كما أثرت قضية الإمامة والولاية فكذلك أثرت نظرية (الانتظار) على موضوع الحديث (في هذا البحث) العمل الثوري (الجهاد) فتعطل لأنه كان محرما في غياب الإمام.

قد نتج عن الإلتزام بنظرية الانتظار، وتفسير شرط الإمام المجمع عليه في وجوب الجهاد، أنه الإمام المعصوم، أن تعطل الجهاد في عصر الغيبة، فقد اشترط الشيخ الطوسي في كتاب المبسوط (في وجوب الجهاد) ، اشترط ظهور الإمام العادل الذي لا يجوز لهم القتال إلا بأمره ، ولا يسوغ لهم الجهاد دونه، أو حضور من نصبه الإمام بأمر المسلمين، وأفتى بعدم جواز مجاهدة العدو حين لم يكن الإمام ظاهرا، ولا من نصبه الإمام حاضرا) وأضاف : (إن الجهاد مع أئمة الجور أو من غير إمام خطأ يستحق فاعله الإثم، وإن أصاب لم يؤجر وإن أصيب كان مأثوما(١٦).

واعتبر ابن إدريس : (أن الجهاد مع أئمة الجور أو من غير إمام خطأ يستحق فاعله الإثم، وإن أصاب لم يؤجر وإن يصب كان مأثوما) : قال (إن المرابطة فيها فضل كبير إذا كان هناك إمام عادل، ولا يجوز مجاهدة العدو من دون ظهور إمام) (١٧). وصرح يحي بن سعيد في كتابه الجامع للشرائع بحرمه الجهاد من دون إذن إمام الأصل، وأن وجوبه مشروط بحضور الإمام، داعيا إليه أو من يأمره به.

وبالرغم من قيام الدولة الشيعية الصفوية تحت رعاية المحقق الكركي الشيخ علي بن الحسن ، فإنه رفض تعديل الحكم في عصر الغيبة، وحصر في كتابه (جامع المقاصد في شرح القواعد) وجوب الجهاد بشرط الإمام أو نائبه وفسر المراد بالنائب بقوله: (نائبه المنصوص بخصوصه حال ظهور الإمام وتمكنه، لا مطلقا (١٨).

وأغفل الشيخ بهاء الدين العاملي بحث الجهاد في كتابه (جوامع عباس) وفسر سبيل الله في عصر الغيبة، ببناء الجسور والمساجد والمدارس (تذكر وزارة جهاد البناء الإيرانية) ، ولا يذكر أحد من العلماء المعاصرين كالكبايكاني والشاهرودي والخونساري والخوئ والقمي الشريعتمداري الذين يعلقون على العروة الوثقى لا يذكرون شيئا عن الجهاد أو تفسير كلمة سبيل الله به، ومن هنا وإذا استثنى عدد محدود من الفقهاء الذين شككوا في تحريم الجهاد، وربطه بالإمام العادل المعصوم، يكاد يكون إجماع الفقهاء الإمامية عبر التاريخ منعقدا على تحريم الجهاد، بقصد الدعوة للإسلام والقتال من أجل ذلك، وخاصة لدى العلماء الأوائل منهم (١٩).وقد قال الخميني في مؤلفه تحرير الوسيلة : (في عصر غيبة ولي الأمر وسلطان العصر عجل الله فرجه الشريف يقوم نوابه وهم الفقهاء الجامعون لشرائط الفتوى والقضاء مقامه في إجراء السياسات، وسائر ما للإمام عليه السلام إلا البدأة بالجهاد(٢٠).

فهكذا كانت النظرية (العقدية)والسياسية عائقا كبيرا أمام الشيعة في الانطلاق إلي تحقيق عقيدة الثأر الكربلائية، والإنتقام ممن قتل الحسين رضي الله عنه، وإن كان هذا الموقف ظاهريا يخفي خلفه أحلاما توسعية (٢١)، فقد بدأ الانقلاب على البدعة ببدع أخرى، ولكنها هذه المرة تساعد على الخروج من هذه الشرنقة القاتلة التي وضعوا أنفسهم فيها، بعد أن قال قائلهم: (اللهم طال الانتظار وشمت بنا الفجار وصعب علينا الانتظار(٢٢).

الأطر المنسوخة:

المنهج الشيعي مر بأطوار يختلف بعضها عن بعض بشكل كبير، فبعد وفاة الإمام الحادي عشر الحسن العسكري من غير ولد ظاهر إضطرب الشيعة وتفرق جمعهم، لأنهم أصبحوا بلا إمام لأنه هو الحجة على أهل الأرض ، وبقاء الكون عندهم بالإمام إذ لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت وهو أمان الناس ولو أن الإمام رفع من الأرض ساعة لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله، ولكن الإمام مات بلا عقب، ولم يحدث شئ من هذه الكوارث ، فتحيرت فرق الشيعة واختلفت، فادعت طائفة منهم أن الحسن له ولد غائب حفاظا على المكاسب الأدبية والمادية، وإن له نوابا هم لواسطة بينه وبين الناس، وكانوا أربعة، وكانوا يجمعون الأموال من الناس لإيصالها لهذا الغائب، وكانت لهم الطاعة فلهم ما للإمام ، ولقولهم صفة القداسة والعصمة ، وهم مخولون كذلك بالتشريع، ثم كان أن توفى رابع النواب ، ولم يوص بنائب خامس بعده، وأخرجوا مرسوما موقعا من الإمام الغائب يقول فيه : (أما الوقائع الحادثة فأرجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله)(٢٣).

فانتهت بذلك ما تسمى الغيبة الصغرى، وبدأ تطور جديد بتفويض أمر النيابة عن الإمام المنتظر إلى رواة حديثهم وواضعي أخبارهم بعد النواب، وقد أفاد هذا التطور الشيعة في تخفيف التنافس على منصب النيابة وبدأت الغيبة الكبرى (٢٤).وكل هذا العنت لربط الناس بأحلام أخرى حتى لا ينفلت الناس من هذه البدع وإن كان هذا قد حدث بالفعل مع نهاية كل مرحلة وبداية كل تطور جديد.

وكانت نظرية (ولاية الفقيه) والتي تنازل فيها الفكر الإمامي عن شرط العصمة والنص في الإمام، وسمح بالنيابة الواقعية للفقهاء عن

الإمام، التي تسمح لهم بممارسة القضاء وتوجب التقاضي إليهم، وهو ما كان محرما عندهم من قبل، وفتح باب الاجتهاد الذي كان محرما كذلك، والقول بالقياس، وانسحبت أشكال التطور (أو التبديل) على كافة محرمات (نظرية الانتظار) كالعمل المسلح (الثورة) ، والإمامة والجهاد والحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلاة الجمعة. فقد طالت غيبة الإمام وتوالت القرون دون أن يظهر والشيعة محرومون من دولة شرعية حسب اعتقادهم، فبدأت فكرة تقول بنقل وظائف المهدي تداعب أفكار المتأخرين، فالخميني يقول : (قد مر على الغيبة الكبرى لإمامنا المهدي أكثر من ألف عام، وقد تمر ألوف السنين قبل أن تقضي المصلحة قدوم الإمام المنتظر في طول هذه المدة المديدة، فهل تبقى أحكام الإسلام معطلة يعمل الناس من خلالها ما يشاؤون؟ إلا يلزم من ذلك الهرج والمرج؟ القوانين التي صدع بها نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم وجاهد في نشرها وبيانها وتنفيذها طيلة ثلاثة وعشرين عاما، هل كان كل ذلك لمدة محدودة؟ هل حدد الله عمر الشريعة بمائتي عام مثلا؟ الذهاب إلى هذا الرأي أسوأ في نظري من الاعتقاد بأن الإسلام منسوخ.

ثم يقول: (إذا فإن كل من يتظاهر بالرأي القائل بعدم ضرورة تشكيل الحكومة الإسلامية فهو ينكر ضرورة تنفيذ أحكام الإسلام، ويدعو إلى تعطيلها وتجميدها، وهو ينكر بالتالي شمول وخلود الدين الإسلامي الحنيف) (٢٥). ويقول : (وبالرغم من عدم وجود نص على شخص من ينوب عن الإمام حال غيبته ، إلا أن خصائص الحاكم الشرعي موجودة في معظم فقهائنا في هذا العصر ، فإذا اجمعوا أمرهم كان من ميسورهم إيجاد وتكوين حكومة عادلة منقطعة النظير) (٢٦).

وإذا كانت حكومة الآيات والفقهاء لا مثيل لها في العدل (كما يقول) فما حجتهم بخروج المنتظر إذا؟ وهو يرى أن ولاية الفقيه الشيعي كولاية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث يقول: (فالله جعل الرسول وليا للمؤمنين جميعا ومن بعدها كان الإمام وليا، ومعنى ولايتهما أن أوامرهما الشرعية نافذة في الجميع يضيف- نفس هذه الولاية والحاكمية موجودة لدى الفقيه، بفارق واحد هو أن ولاية الفقيه على الفقهاء الآخرين لا تصل لدرجة يستطيع عزلهم أو تنصيبهم، لأن الفقهاء في الولاية متساوون من ناحية الأهلية وأن معظم فقهائنا في هذا العصر تتوفر فيهم الخصائص التي تؤهلهم للنيابة عن الإمام المعصوم (٢٧).

من الدورة إلى الثورة:

الفكر السياسي الإمامي هو فكر ثوري بطبيعته، من نشأته إلى منتهاه، وكما يقول قائله: (الشيعة هم التيار الثوري على مدار تاريخ المسلمين، لديهم عقدة ذنب متأصلة منذ مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب في كربلاء على يد زبانية يزيد بن معاوية ثاني حكام الدولة الأموية، عقدة سببها أنهم تخلوا عن الحسين الذي خرج يطلب الأمارة، وخذلوه بل وسلمه نفر منهم إلى عدوه اللدود، ليمثل بجسمه ويسبي أهله وذويه، وقد أتاح لهم الزمن عدوا جديدا يعوضون في جهاده وقتله والثأر منه مـا اقترفوه في كربلاء، وبالفعل هم يقاتلون بكل الهموم والآلام والأحزان والاضطهاد الذي جثم على صدورهم طيلة ما يقرب من ١٣٠٠ سنة، يجاهدون ضده بعقيدة متماسكة وشعار حاد (كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء) وإذا لم تكن الدماء قد جرت في كربلاء دفاعا عن الحسين فلتسل أنهارا يغسلون بها العار عن الأرض ويستعيضون بها عن الشرف الضائع.

وتمت المبالغة في تحويل نظرية (الإنتظار) السلبية إلى نظرية ثورية، كما قال عبد الهادي الفضلي: (إن الذي يفاد من الروايات في هذا المجال هو أن المراد من الإنتظار هو وجوب التمهيد والتوطئة بظهور الإمام المنتظر وإن التوطئة لظهور الإمام المنتظر تكون بالعمل السياسي عن طريق إثارة الوعي السياسي والقيام بالثورة المسلحة (٢٨) . وإن كانت الدولة النبوية في المدينة التي أقامها المصطفى صلى الله عليه وسلم هي أمنية الأماني التي يسعى لتحقيقها، باعتبارها أنموذجا ومثالا يقتفي أثره ويرجى الوصول إلى صورته، فإن النموذج لم يكن هو المثال والهدف الذي تسعى إليه الإمامة، بل كان مثالهم دائما (وحتى يظهر مهديهم المنتظر) هذه المصيبة الكربلائية التي هي دائما ماثلة أمامهم . (فالأمة الحسينية أمة متصلة قوام إتصالها بالمصائب المتعاقبة عليها، ومواقف الثورة

الكربلائية التي لم تنقطع، هناك تدرك تماما أنك تعرفهم فردا فردا منذ آلاف السنين قاتلت معهم وقاتلوا معك، واستشهدتم سويا في كربلاء، هناك تدرك أن المهدي ليس بعيدا وأنه في مكان ما على الجبهة) (٢٩).

وإذا غدا استمرار الثورة ودوامها من بعد حدوثها وانجاز الثورة الأعظم واجب تجديد الإعجاز كل يوم، والقيام بالثورة من غير انقطاع ولا تلكؤ، ولا يترتب تجديد الأعجاز حين تنصل الثورة الإسلامية الخمينية بين كربلاء وبين ظهور المهدي، إلا إظهار الدلائل على قيام الثورة، وحفظ معناها، والحؤول بين هذا المعنى وبين الاضمحلال والضعف، ولا يتم ذلك إلا بالإقامة على الحروب. وينبغي لهذه الحرب أن تكون الحرب الأخيرة، ولو طالت قرونا، لأنها تؤذن بتجديد العالم كله، وبطي صفحة الزمان.

فلم تكن الحرب بضواحي البصرة وعلى ساحل شط العرب إلا مقدمة لحروب كثيرة أوكلت إليها القيادة الخمينية الشابة التمهيد لـ (فرج) المهدي صاحب الزمان من غيبته الكبرى وبسطه راية العدل على الأرض كلها، وتوريثه ملك الأرض للمستضعفين، وهذا المفهوم الثوري المستمر كان له في الحركة السياسية الشيعية اللبنانية نصيب وافر، فقد ترجمه خطباء الحركة الخمينية بلبنان ونقلوه إلى اللبنانية أو الكلام السياسي اللبناني، بعبارة (الحالة الجهادية) أو(الثورة الإسلامية) ، وهي تعني الخروج من كل أشكال الإدارة التي تمت بصلة إلى الدولة ومؤسساتها وقوانينها عامة، والى كيانها الحقوقي خاصة. لذا يحرص أبناء (حزب الله)على استمرار التجاذب حرصهم على حدقات عيونهم. ويرفعون هذه الحال إلى مرتبة المثال.

ويخاطب محمد حسين فضل الله جمهور المصلين في مسجد بلدة النبي عثمان قائلا: (وعلينا أن نخطط للحاضر والمستقبل، لنكون مجتمع حرب، ويضيف أن هذه الحرب مفروضة ، شأن كل الحروب التي يحل خوضها للإماميين ، ولا يحل لهم خوض غيرها) (٣٠) والحرب المفروضة هي النظير الإيراني لحرب التطويق السوفيتية: فكل ما يوقف توسع أصحاب مجتمع الحرب عدوان عليهم، وتكون هذه الحرب مشروعة للدفاع عن النفس.

الإمامية في بداية القرن العشرين ونهايته:

كانت الحالة الدينية السياسية الشيعية في بداية القرن العشرين الميلادي، حالة منكمشة إلى حد ما، وكان هناك تهميش واضح للشيعة باعتبارهم (طائفة) وكان ذلك التهميش الذي عاناه (جبل عامل) والشيعة عامة خلال فترة الانتداب على لبنان، فترة بناء الدولة والاستقلال حال دون احتلال مواقع في الدولة تسمح أو تدفع بالمشاركة في سباق إدعاء رموز تاريخية مؤسسة لها من الطائفة الشيعية. وعلى مستوى الحالة الدينية، فقد ضعف دور العلماء وعزف الشيعة اللبنانيون عن فقه الإمامة (أي طلب العلم الشيعي الديني) وانزوي المسجد، وقد شهد أحدهم على هذا الواقع قائلا: (فهذه القرى العاملية لا تذكر اسم الله تعالى في ليل ولا نهار، برغم سخاء المهاجرين على بناء المساجد وكان يوجد وقتها (١٩٢٠ -١٩٣٠م مايزيد على الأربعمائة مسجد بين كبير وصغير(٣١) .

وتزامنت هذه الحالة الرثة والهامشية مع تغيرات عالمية ضخمة، فكان سقوط الخلافة العثمانية، وبداية الدعوة إلى القومية العربية عقب الطورانية التركية والحرب العالمية الأولى، ثم كانت الدولة البهلوية (العلمانية) وأدت هذه الظروف وغيرها مجتمعة إلى بدايات.النهضة الحديثة للشيعة الإمامية التي انتهت في عام ١٩٧٩م، بقيام الجمهورية الإسلامية (في إيران) والرغبة في قيام جمهوريات أخرى على غرار المثال الأم. وبين هذه النهضة في بداية القرن وقيام الدولة وسعيها إلى إنشاء دول أخرى، خاصة في لبنان كانت هناك جهود كبيرة لذلك، وكان حزب الله مرحلة من مراحل ينبغي الوقوف عندها.

أما كيف كانت بداية النهضة السياسية والدينية الشيعية اللبنانية على يد موسى الصدر وفضل الله وغيرهما وكيف أصبحت الطائفة الشيعية رقما مهما في الحسابات اللبنانية؟ وكيف صنعوا قوافل الانتحاريين ؟ فالإجابة على هذه الأسئلة وغيرها هي موضوع حديثنا في السطور اللاحقة.

من الانتظار إلى التمهيد للانتصار:

(النظام اللبناني غير شرعي ومجرم ، ومن الضروري تسلم المسلمين الحكم في لبنان لكونهم يشكلون أكثرية الشعب) ، فتوتان الأولى جمينية والثانية خامنئية، وضعتها الحركة الشيعية في لبنان في بؤرة القلب وبؤبؤ العين، ورفعتها إلى مرتبة الهدف الذي يسعى لتحقيقه. كما أفتى رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، مهدي شمس الدين بذلك حيث قال: (إن الدولة وجدت نتيجة لعقد، هذا العقد تبرمه الأكثرية من المواطنين بإرادتهم الحرة، فينتج عن إبرامه كيان الدولة، ومن المؤكد أن التنازل عن الهوية الثقافية والدينية ومظاهرها في المؤسسات والقوانين يتنافى مع واجبات هذا العقد، ولا يؤثر على موجبات هذا العقد موقف الأقلية التي توافق على التنازل عن هذه الهوية، فإن على الأقلية في هذه الحال أن تخضع للأكثرية) (٣٢).

وفي معرض رده على الأسئلة الموجهة إليه في أحد البرامج قال محمد حسين فضل الله الزعيم الروحي لحزب الله (هكذا يلقب): (لم يكن هؤلاء الذين حكموا العالم الإسلامي في الماضي يحكمون باسم الإسلام، فنحن لا نعتقد على سبيل المثال أن الحكم العثماني كان عادلا وحرا وإسلاميا(٣٣). ويعلق عبدالمنعم شفيق على هذه الجملة قائلا : (هكذا تخرج فقهاء الشيعة فتاويهم دون اعتبار لعامل التاريخ أو الجغرافيا ومن دون تقية كذلك) (٣٤) .

احتل فقهاء الشيعة – والآيات والحجج – مكانة عالية بلغت درجة التقديس، وأضحت الفتاوي الصادرة عنهم، وكذلك حتى الكلام المجرد، على درجة من القداسة الدينية في نفوس أتباعهم، كما سبق ذكره. فقد دأب الفكر الإمامي على ربط (الأمة الجعفرية برموز غير قابلة للنقد أو التجريح، أعطت هذه الرموز نفسها صلاحيات وصلت إلى خصائص الإمام الغائب المعصوم (والمعين من قبل الله تعالى حسب زعم الفكر الشيعي).

وعلق عبدالمنعم شفيق إلى هذه الصلاحيات قائلا : (لقد تجاوزت هذه الصلاحيات ما كان يتمتع به الشاه المستبد الطاغية الدكتاتور عميل الإمبريالية والصهيونية فقد أقر مجلس الخبراء الإيراني إعطاء الولي الفقيه صلاحيات نص عليها في المادة ١٠٧ والفقرة ١١٠ من الدستور الإيراني (٣٥).

إذا نظرت إلى علم حزب الله في لبنان تجد عبارة (الثورة الإسلامية في لبنان) ، والمقصود بهذه الثورة هي الثورة الأم في قم وكلتاهما ثورة آيات، أي أن العلم الديني الإمامي هو أساس التصور والحركة، فالثورة دينية إمامها فقيه، ورئيسها فقيه ، ووزيرها فقيه، والمثال الذي ينبغي وضعه نصب العين هو إرادة الفقهاء، ولهذا فقد كان للحوزات والحسينيات دور مهم في غرس مفاهيم التقديس وفي إمداد الثورة بالمؤيدين والأنصار.

حجة الخاصة على العامة:

مع نهاية الغيبة الصغرى (المدعاة) للمهدي وجد علماء الشيعة أنفسهم في حيرة شديد، وذلك خوفا من انكشاف حقيقة أمر غيبة المهدي فأخرجوا مرسوما منسوبا إلى مهديهم الغائب يقول فيه : (أما الوقائع الحادثة فأرجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليكم) ثم أتبعوه بمرسوم آخر يقول فيه: أما من الفقهاء من كان صائنا لنفسه، حافظا لدينه، مخالفا لهواه، مطيعا لمولاه فللعوام أن يقلدوه) (٣٦).

ولهذا فقد وسع أمامهم سبل الاجتهاد للمعاصرة عندما قال : (إن الفقهاء هم حجة على الناس كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم حجة عليهم، وكل من يتخلف عن طاعتهم فإن الله يؤاخذه ويحاسبه على ذلك، وعلى كل فقد فوض الله اليهم جميع ما فوض إلى الأنبياء وإئتمنهم على ما إئتمنوا عليه) (٣٧).

ووفقا لذلك فإنه إذا ما نهض بأمر تشكيل الحكومة فقيه عالم عادل فإنه يلي من أمور المجتمع ما كان يليه النبي صلى الله عليه وسلم ، ووجب على الناس أن يسمعوا له ويطيعوا. وقد نسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : وعلماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل) ، واستغل الخميني ذلك فقال : (الفقيه الرافض بموله موسى وعيسى). ولهذا لم يكن مستغربا أن يقول أحــد المسؤولين الإيرانيين : (إن الخميني أعظم من موسى وهارون).(٣٨)

وترتفع وتيرة التجاوزات في إعطاء الصلاحيات لفقهاء المذهب حين كتب آية الله آزاري (القمي) يقول : (ليس لـــدى الولي الفقيه أية مسؤولية أخرى غير إقامة نظام الحكم الإسلامي، حتى لو إضطره ذلك إلى أمر الناس بالتوقف مؤقتا عـــن الصلاة والصيام والحج أو حتى الإيمان بالتوحيد) (٣٩).

ويستمر التضليل بمحاولة الإقناع إن الفقهاء لا دخل لهم في وظائفهم وخصائصهم، بل إن الفقهاء معينون ضمنا من قبـــل الله. وبذلك تكون سلطة الفقيه سلطة إلهية. وبهذه المراسيم والقوانين والتحذيرات والتهديدات أصبحت سلطة الفقهاء، فـــوق كـــل السلطات ولا تخضع لأي سلطة كانت، وكما يقول الخميني: (وإذا كان السلاطين على جانب من التدين فما عليهم إلا أن يصْدروا في أعمالهم وأحكامهم عن الفقهاء وفي هذه الحالة فالحكام الحقيقيون هم الفقهاء، ويكون السلاطين مجرد عمال لهم) (٤٠).

ولم يخرج محمد حسين فضل الله عن هذا الخط الساخن الرافع لأقدار الفقهاء إلى منازل الأنبياء أو أعلى حيث يقول : (إن رأي الفقيه هو الرأي الذي يعطي الأشياء شرعية بصفته نائبا عن الإمام، الإمام هو نائب النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أن النـــبي صلى الله عليه وسلم هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وبالتالي الفقيه العادل هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم) (٤١).

والواقع أن شرعية كل الأمور تنطلق من موافقة الفقيه، وهذا يعني أن رئيس الجمهورية لا يستمد سلطانه مـــن الشـــريعة الإسلامية ومن انتخاب الناس له، وإنما من موافقة الفقيه لرئاسته، والأمر ذاته ينطبق بالنسبة للنواب في مجلس الشورى، وغيرها مـــن المؤسسات الدستورية في الدولة.

ولهذا فقد تحقق نجاح كبير في إنجاز أحد أكبر الأهداف وهو تأطير (الأمة) الشيعية بسياج الآيات وتجييشها تحت قيـــادة واحدة، وعليه فلا عجب أن ترى قوافل متوالية من الشباب الشيعي يضحون بأنفسهم في سبيل طاعة الفقـــهاء، وهـــذه الطاعـــة والسيطرة المطلقة كانت نتيجة لجهد كبير بذله الفقهاء عبر التاريخ الإمامي. وفي هذا يقول الدكتور موسى الموسوي معلـــلا كيفيـــة سيطرة فقهاء الشيعة على الأمة الإمامية : (لقد استغلت الزعامات المذهبية والفقهاء عبر التاريخ ومنذ أن بـــدأت تحكـــم علينـــا الطوق- سذاجتنا نحن الشيعة الإمامية وحبنا الجارف لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأحدثت في مذهبنا بدعا وتجلويف وتجاعيد كل واحدة منها تخدم مصالحهم ، وفي الوقت نفسه تضر بنا بل تنسفنا نسفا).

والتجاعيد التي ادخلوها في العقيدة الشيعية لصالحهم، وتفسيرات الآيات القرآنية حسب أهوائهم بصورة تخـــدم أهـــواء الفقهاء، وبهذين الجناحين استطاع الفقهاء أن يحكموا قيود الاستغلال والاستبداد على أعناق الشيعة عبر التاريخ. كان فقهاؤنا علـــى علم كامل بالنفسية الشيعية التي كانت مهيئة للخضوع إلى ما يطلب منهما في عهد الظلام، فنصبـــوا أنفســـهم أوليـــاء وأوصيـــاء عليهم(٤٢) .

ويمضي د. موسى في ذات الشأن قائلا :(وأعتقد جازما أن فقهاءنا لم يقصدوا من استعبادنا نحن الشـــيعة الإماميـــة - بالسيطرة الروحية والفكرية علينا فحسب،بل كانوا يخططون لأمرين كل واحد منهما أخطر من الآخر: كانوا يخططون للسيطرة على أموال الشيعة ، ومن ثم الاستيلاء على مقاليد الحكم. فأدخل الفقهاء تلك البدعة الكبرى في العقيدة الشيعية، وفسروا الآية الكريمـــة التي تقول :(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ(٤١) (سوره لأنفال) بأن هذه الآية نزلت في أربـــــاح

المكاسب في حين أن المفسرين وأرباب الأحاديث والفقهاء أجمعوا علي أنها نزلت في غنائم الحرب ولا علاقة لها بأرباح المكاسب، ثم أفتوا بوجوب تسليم هذا الخمس إلى يد الفقهاء (٤٣).

وقد وجد في التاريخ أيضا أن هناك نائبا شيعيا (من جنوب لبنان) يسمى رشيد بيعنون وقف في البرلمان اللبناني مطالبا بمنح الطائفة الشيعية حقوقها قائلا: (امنحوها حقها في الوظائف ، وفي العلوم والمعارف، مدوا الطرقات وسهلوا المواصلات في أرجائها المحرمة، ادعموا فلاحيها وعمالها، تعهدوها بالعناية اللازمة أنظروا إليها نظرة احترام كما تنظرون إلى غيرها) كان هذا الحال وصفا لواقع الحياة الشيعية السياسية في ذلك الوقت(١١/٥/١٩٤٤م)، أما في الجانب التعليمي، فبالرغم من هذه الأحكام الشديدة لطوق السيطرة الشيعية على الناس، إلا أن الوضع الديني والاجتماعي والتعليمي بلغ في لبنان وضعا مزريا، (فهذه القرى العاملية لا يذكر فيها اسم الله في ليل ولا نهار، ولا فرق عند أهلها بين رمضان وشوال، أمام مكانة عالم الدين فقد انحطت إلى أسفل الدركات : فهذا يموت جوعا ولم يشعر به إنسان، وذاك يتهجم السفهاء على كرامته، فلا يجد ناصرا ولا معينا، وآخر يتحزب للبيك والنائب ليأكل الرغيف) (٤٤).

ونتيجة لظروف العالم (الإمامي) الاقتصادية المتدنية، بدأ يقول بعض من عامة الناس أن راتب الحارس أو عامل البريد أكبر من ذلك الخريج من النجف الذي أتى للإصلاح الاجتماعي أو الديني ، وقد تسببت هذه الحالة في حسرة ومرارة شديدة لدى الشيعة، فكان ذلك حاجزا كبيرا أمام تحقيق أحلامهم المنشودة ، ولا شك أن انصراف طلبة العلم الديني الإمامي إلى غيره وإحجام أبنائهم ليس في جبل عامل أو لبنان وحده بل في العالم العربي والإسلامي (الشيعي) كله عن إقتفاء هذا الأثر أدى ذلك إلى تنكب تاريخ برمته ولما كانت الجماعة العاملية التي جرى مثقفوها من علماء وأفندية وأساتذة على تسميتها (بالأمة) أناطت بتشيعها وبلائها وبلاء علمائها في حفظ التشيع ورعايته واستمراره واستقلاله.

وقد كان من أسباب اضمحلال مكانة التعليم الإمامي في لبنان والعزوف عنه، هو أنه كان يؤخذ على جامعة النجف، بعدها المكاني وانزوائها وكذلك بعدها عن مشكلات وقضايا المرامي الرئيسية لها. وكما يقول المثل أصل البلاء عجز العلماء عن مماشاة العصر، وعلى كل حال فيرى عبدالمنعم شفيق أن المأساة الإمامية في لبنان تمثلت في أمور عدة أوجزها في الآتي:(٤٥).

١- غياب القيادة الدينية التي تمثل مرجعية واعية لتحقيق أحلام الطائفة.

٢- إنكفاء العلم الإمامي على نفسه وعدم مواكبته لمتطلبات العصر.

٣- انحطاط مكانة العلم والعلماء بين عامة الناس وخواصهم.

٤- بعد المدارس الدينية الشيعية الكبرى والتي يتطلب شد الرحال إليها والتحصيل العلمي منها مبالغ مالية كبيرة، وهو مما لم يكن في مستطاع الكثير من الناس وقتها.

٥- انصراف أبناء العائلات الدينية الكبيرة عن طلب العلم الإمامي.

وهكذا كان حال وواقع الشيعة الإمامية في لبنان . ولكن مع نهاية منتصف هذا القرن الميلادي ، كانت هناك بدايات جديدة لحياة جديدة.

التمهيد للثورة القادمة:

الواقع الذي تقدم ذكره دفع علماء الشيعة إلى النظر بجدية إلى الواقع اللبناني كما كان النظر منصرفا لحال بقية الأمة الشيعية، فخلال الفترة السابقة للثورة كانت الأفكار الثورية حول الحكم تتطور وتفصل في أوساط القوى المعارضة للشاه في عملية ملحوظة من التفاعل الشيعي الشامل.

إن المدارس الدينية مثلت في قم بإيران وفي النجف بالعراق دورا جاذبا ونقطة التقاء للعلماء والفقهاء من إيران ولبنان والعراق، حيث أرسيت الأسس من أجل رؤية عالمية مماثلة- وإن لم تكن متطابقة تماما – وشبكة من الصداقات الشخصية والولاءات السياسية الدينية التي كان لها اثر مهم على المنطقة بأسرها.

إن العلاقة بين الإمام موسى الصدر ورجال الدين الشيعة اللبنانيين الآخرين والخميني قد ساعدت في تأسيس الروابط التي سهلت فيما بعد دخول إيران الثورة إلى الساحة اللبنانية، وعلى الرغم من الطبيعة الشيعية الخاصة بمدرسة النجف، فإن هذه التجمعات ربما ساعدت على التخفيف من حدة الطائفية الضيقة للعقيدة الثورية الجديدة. وهكذا فقد مثلت المدارس الشيعية الكبرى بؤرا أساسية لتجمع الملالي وتوحيد الأفكار الثورية التي كان على رأسها إقامة دولة شيعية كبرى تضم إيران والعراق ولبنان في بداية الأمر.

وعندما نظر علماء هذه المدارس إلى الأحوال اللبنانية التي هي أحد أضلع مثلث الحلم، كان لابد من تذليل العقبات الكبرى التي تواجه تحقيق هذا الحلم، وكان التركيز العلاجي متوجها لحل الإشكاليات الخمس التي سبق ذكرها ، وكان ذلك بانتهاج خطين متوازنين يصبان في حوض واحد في نهاية المرحلتين وهما: التثوير السياسي ، والتثوير العلمي الديني، والهدف النهائي والمنتهى هو الثورة المسلحة.

أما بشأن التثوير السياسي فعندما توفى المرجعية العلمية لشيعة لبنان (هو عبد الحسين شرف الدين) المتوفي سنة ١٩٥٨م ، طلب آل شرف الدين من أحد أقربائهم المجيء إلى مدينة صور لخلافة عبدالحسين في هذه المرجعية، حيث أنه قد وصى على هذا الشخص لخلافته.ومن المعروف أن جد هذا القادم هو عبدالحسين العاملي من بين مجموعة من علماء جبل عامل الذين التحقوا ببلاط الدولة الصفوية ليساعدوها في ترسيخ المذهب الشيعي في إيران، ولد المرجع (القادم) في قم بإيران عام ١٩٢٨م، ووافق آيات الله محسن الحكيم على إرساله إلى لبنان(٤٦).

وكان والده أحد الآيات الكبار في إيران، وتخرج هذا المرجع العلمي من جامعة طهران كلية الحقوق والاقتصاد والعلوم السياسية، وبالرغم من ذلك فقد حصل على لقب إمام.

كان هذا الرجل المرجع هو موسى الصدر الذي تربطه صلة مصاهرة مع الخميني، فإبن الخميني (أحمد) متزوج من بنت أخت الصدر، وإبن أخت الصدر مرتضى الطبطبائي متزوج من حفيدة الخميني ، كما يذكر أن الصدر تتلمذ عل يد الخميني في قم، وعندما قدم الصدر إلى لبنان وكان ذلك في عام ١٩٥٨م وكان عمره آنئذ ثلاثين عاما، حصل على الجنسية اللبنانية مباشرة بناءا على قرار جمهوري أصدره الرئيس شهاب الذي حكم لبنان في الفترة من ١٩٥٨ – ١٩٦٤م، وهو من الأسرة الشهابية التي تنصرت وكان هذا القرار فريدا من نوعه، لأن إعطاء الجنسية اللبنانية لغير النصارى أمر في غاية المشقة. فكان ذلك القرار بمثابة التمكين لإقدام الصدر في لبنان.

وكانت شخصية الصدر وبداياته وتحالفاته مثار كثير من التساؤلات ، إذ أحاط بها الغموض الشديد وعلامات الاستفهام الكثيرة(٤٧) ومما يعرف عن الشاه محمد رضا بهلوي (وهو شيعي أيضا) أنه كان يقمع الحركات الدينية الشيعية داخل إيران ،

ويدعم توسعها خارجها ، وقد دعم الشاه حركة الدعوة التي يقودها (محمد باقر الصدر في العراق وموسى الصدر في لبنان) .

وقد ذكر شهبور بختيار (الذي قلده الشاه السلطة في إيران حينما تركها) أن: (الشاه محمد رضا بلهوي كانت له أحلام توسعية كبيرة ، فأرسل موسى الصدر إلى لبنان من أجل تعزيز مشروع إنشاء دولة شيعية تضم إيران والعراق ولبنان ، وقد وعده بخمسمائة ألف دولار مقابل ذلك (٤٨).

والجدير ذكره هنا والذي يؤكد وجود النية المبيتة لتنفيذ مشروع الدولة الشيعية الكبرى ذلك التوافق الزمني للبدايات في الدول الثلاث، فالخميني في إيران ، ومحمد باقر الصدر في العراق وموسى الصدر في لبنان، فهكذا كانت الأمور مرتبة ومعدة، ومن الإنجازات التي حققها موسى الصدر للشيعة في لبنان هو تحويلهم من هامش الحياة السياسية إلى نسيجها، بل وإلى عناوين موضوعاتها عبر المداخل الآتية:

١- تحديث القيادة الشيعية:

أحدث موسى الصدر تغيرا كبيرا في نهج القيادة الشيعية ، وقد وصل إلى القيادة بالعمل السياسي الجماهيري، وتمتين علاقاته مع الناس ، وأصبح أحد حلقات الربط الاجتماعي في شبكة الاتصالات محليا وإقليميا . وأصبح رمزا للبنانيين وخاصة الجنوبيين منهم ويتكلم بإسمهم ومظهرا من مظاهر القوة السياسية والاجتماعية التي ينبغي احتسابها في المشاريع العامة المختلفة، وانضوى اليه وإلى حركته معظم علماء الشيعة اللبنانية.

إلا أن الدور السياسي لم يورث مرجعية دينية وفقهية، وقد بدى أن الصدر لا يوليها اهتماما كبيرا ، برغم حرصه وحرص شرف الدين والذي زكى الصدر ليخلفه) على زيادة العلماء كما وكيفا، وتمهيد سبل إعدادهم وبالتالي أخلى مسألة المرجعية من كل مضمون ، رغم أن السياسية الخمينية في وجه من وجوهها تقوم على أساس إنشاء قاعدة مضمونها عمل ديني واسع متماسك تسوسه زعامة تقوم على أساس مركزي، وهكذا قد قام الصدر بالقضاء على الزعامات الشيعية التقليدية التي لم تكن لها تطلعات ثورية، وارتضت واقع العيش اللبناني والتمسك بالمكاسب الخاصة دون النظر لتطلعات وآمال وآلام الأمة الشيعية (٤٩).

٢- وضوح التميز الطائفي :

اتخذ الصدر لإجلاء صورة الطائفية الشيعية أمرين مهمين.

الأول: تاسيس حركة المحرومين :-

أخذت هذه الحركة في بدايتها السمة الاجتماعية والمناداة بتحسين أحوال الشيعة في لبنان ، وخاصة سكان الجنوب، ووضع الصدر لها شعارات براقة، كالإيمان بالله والحرية والعدالة الاجتماعية والوطنية وتحرير فلسطين، وأن الحركة لجميع المحرومين وليست هي خاصة بالشيعة فقط. فقامت هذه السياسة بقيادة موسى الصدر إلى تذكير المجتمع ما فات الشيعة من قوة، وذلك عن طريق وصل ما انقطع بين المقيمين في الأرياف وبين الموجودين في المدن، وعن طريق ما تباعد بين أهل جنوب لبنان وبين أهله بقاعه، وكان على حركة الصدر أن تصور الفروق الاجتماعية والثقافية المتعاظمة بين صفوف الشيعة في صورة الأمر الهين والثانوي، ولما كان لا وجود لكيان جامع لكل الشيعة، عمل موسى الصدر على تجسيمه في شارات تقربه من المخيلات وتحمله للاقتراب من الحقيقة. فكانت التظاهرات الكبيرة التي تجمع عشرات الألوف من الناس، وتضم أجنحة الشيعة اللبنانيين ، في الجنوب والبقاع، وفي الريف والمدينة، وكان رفع الحرمان الشعار المميز للشيعة أنفسهم.

وكان العديد من الشباب الشيعي قد انضم إلى جماعات مختلفة، مثل التنظيم البعثي الموالي لسوريا والحزب القومي الاجتماعي السوري، وجبهة التحرير العربية التي يدعمها العراق، وبعض التنظيمات الماركسية المحدودة، ولقد كان من أسباب هذا الانضواء تحت هذه المذاهب المختلفة خلو الساحة السياسية من حركة شيعية تجمع هذا الشتات الكبير، كما أن هذه التنظيمات كانت تدفع رواتب مجزية لأعضائها، وقد كانت الحالة الاجتماعية الشيعية شديدة الفقر.

وعندما أعلن موسى الصدر عن حركة المحرومين دخلها من دخلها من هؤلاء بما هم عليه من أفكار هذا الشتات الفكري والمنهجي، وكما ضمت الحركة تلك التشكيلة المختلفة، ضمت كذلك في ثناياها الجماعة الإسلامية وكانت هذه الأخيرة أكثر الجماعات المنضوية تحت عباءة الحركة، وقد سعت للاستيلاء على الحركة من داخلها والسيطرة عليها، فكانت حركة المحرومين هي العباءة التي لبستها وتسترت بها، قبل أن يحين خلعها والسفور عن هوية سياسية منظمة مستقلة، ويبدو في تلك المرحلة أن الهم الأكبر كان جمع هذا الشتات الشيعي بأي شكل كان ، تحت قيادة جديدة تستطيع المحافظة على هذا الجمع إلى حين.

وكذلك ذهب الصدر إلى علاج ما يلح عليه أهل الطائفة الشيعية من احتياجهم إلى مرافق يتوسلون بها إلى ما فاتهم في مجال التعليم، والإعداد المهني والرعاية الصحية والاجتماعية ، فنشأت مدرسة الخياطة والتفصيل، ومدرسة التمريض، ومدرسة جبل عامل المهنية التي تخرج منها أهم كوادر المقاومة المسلحة لحركة أمل فيما بعد، كما شهد بذلك نبيه بري زعيم الحركة بعد موسى الصدر (٥٠). كما أنشأ مبرة الزهراء ومستشفى الزهراء فيما بعد.

__الثاني: تأسيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى:__

جاهد الصدر كثيرا لضم الشتات المبعثر لشيعة لبنان، وما أن بدأ الالتئام حتى سعى إلى الانفصال التام بالشيعة باعتبارهم طائفة مستقلة عن المسلمين (السنة) في لبنان، فقد كان للمسلمين في لبنان مفت واحد ودار فتوى واحدة، وكان المفتي وقتها هو الشيخ حسن خالد، رحمه الله، وأدعى الشيعة أن الشيخ حسن خالد رفض التوصل إلى عمل مشترك معهم.وفكر الشيعة في إنشاء (المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى) عام ١٩٦٦م ، ووافق مجلس النواب اللبناني على أنشائه واختير الصدر رئيسا للمجلس ، وبهذا أصبح الشيعة طائفة معترفا بها رسميا في لبنان كالسنة والموارنة.

واصبح هذا المجلس المرجعية السياسية والدينية الجديدة التي تهتم بكل ما يتعلق بالشيعة اللبنانيين ويجمع شؤون حياتهم ومماتهم، وتحولت المرجعية بهذا المجلس من مرجعية فردية إلى مرجعية مؤسسية، وإن لم يتم التخلي عن دور المرجع الشخصي . والى هنا نودع الصدر بهذين الإنجازين الكبيرين وسنعود إليه عندما يلتقي مع محمد حسين فضل الله في نقطة الانطلاق الثالثة.

__الراديكالية العلمية الدينية:__

الدور الذي قام به الصدر حل بعض الإشكاليات التي تواجه التجمع الشيعي بأمراضه المزمنة ، ولكن بقيت بعض الاشكالات الأخرى، فبقيت قضية العلم الديني الإمامي تدريسه وتطويره وتقريبه للناس، والترغيب في العودة إلى حلقة الحوزات والحسينيات، ثم ربط ذلك كله بالهدف الأساسي، وتحويل المجتمع الشيعي اللبناني إلى مجتمع حرب على حد قول فضل الله نفسه ليمهد للثورة وتحويل لبنان إلى دولة شيعية.

ولد فضل الله في عين بالقرب من الحدود الإسرائيلية ، وتلقى تعليمه في النجف على يد محمد باقر الصدر ومحسن الحكيم، ويدعي فضل الله دائما أنه ليس قائدا لأي حزب أو حركة، ولكنه يتمتع بنفوذ خاص بين جماهير الشيعة، يقول:(أنا في الحقيقة رجل حوار، ولي كتب ومدرسة للحوار، وأطلب من الناس أن يحلوا مشاكلهم عبر الحب والتفاهم وليس عبر استخدام العنف) (٥١).

وقال أيضا : (بالأمس دعوهم إلى التدريب على الحرب كما تدربنا على السلاح في لبنان(٥٢). فهل يعني هذا أن زمن السلاح قد ولى برأيكم ؟ فأجاب: (ليس من الضروري أن يكون زمن السلاح في المطلق قد ولى، لأن الحياة تحتاج بحسب طبيعتها إلى حركية السلاح وترتبط بها في الجانب الإيجابي أو السلبي ، لكن المسالة التي أحب أن أؤكد عليها دائما أن قضية الحرب هي قضية الحياة، بحيث أنك عندما تملك السلاح، يجب أن تعيش معنى الحرب في حركة السلاح في يدك ، ولكن لا تحركه إلا من خلال خدمة الإنسان وخدمة الحياة بدلا من أن تحركه لإسقاط الحياة. ومن المؤسف أن الناس لا يتدربون على الحرب، بل أنهم يتدربون على البغض والحقد حتى أصبحنا نتحدث عن الحقد المقدس وعن البغض الإنساني (أي البغض من أجل الإنسانية).

هذا الكلام يجب أن نتذكر معه قول فضل الله وهو يخاطب جمهور المصلين في بلده النبي عثمان قائلا: (وعلينا أن نخطط

للحاضر والمستقبل لتكون مجتمع حرب)(٥٣). ثم يحاول الهروب من دوره في تعبئة الناس للحرب والتأكيد على دوره في ذلك في آن واحد بقوله :(لابد للشعب أن يعبر عن نفسه ويأتي التعبير إما عبر الوسائل التقليدية ، أو بغير الوسائل التقليدية ، ولهذا نجده اختار الهجوم الاستشهادي ، وهذا شكل آخر من أشكال الصراع، ويعتقد من يفعل ذلك أنه يصارع إذا حول نفسه إلى قنبلة حية، ويصارع أيضا لو كانت هناك بندقية في يده ، ويقول: لا فرق أن تموت بقنبلة في يدك أو أن تفجر نفسك، وهذه المفاهيم التي أتحدث عنها مفاهيم عقلية!! في مواقف الصراع، أو في الحرب المقدسة عليك أن تجد افضل الوسائل لتحقيق أهدافك، نعم إنني أتحدث عن الشعب الذي يواجه الخطط الإمبريالية الأمريكية والأوروبية ، لأنني لم اقل لهم على وجه الخصوص : (فجروا أنفسكم) وقد سمعت من يتهمني بأنني أبارك الهجوم، أنا في الواقع أدعو إلى الحرية، إنني أدعو إلى التحرر من الاستعمار وإذا كان الاستعمار يظلم الناس فعلى الناس أن يحاربوه، أما أن نقول : أني أتزعم الناس في أعمال عنف فلا: ثم يلتفت ويستدير للواجهة الأخرى من سياسته ويقول : (أننا يمكن أن نأتي بالتغير في لبنان بتعليم الشعب وتنويره داخل المؤسسات الاجتماعية ، وهناك طرق يمكنك أن تلجأ إليها: أن تبدأ بإقناع الناس، وهي نفس الطريقة التي ينصح بها المسيحيون ، أو يفعلها الماركسيون – حتى لا يكون شاذا في عرضه – إنك حين تقنع الأغلبية السائدة بأن تهتدي بالإسلام يكون وقتها لدينا الظروف السياسية المناسبة، ووقتها تستطيع أن توجد جمهورية إسلامية) .

ثم عرج على الدور المهم للخدمات الاجتماعية الكبيرة التي يقدمونها للناس بالقول: (إن قوتنا تكمن في قدرتنا على صنع الناس والجماهير، وعلى أن نضع أوامرنا موضع التنفيذ إنهم ينفذون أوامرنا ، لأنهم يعرفون إننا أقرب الناس في تحقيق مطالبهم). فهذه عجالة من أفكار الرجل التي يبين الواقع أهدافها، وحقق فضل الله (مثل الصدر) عدة نجاحات مهمة للشيعة في لبنان نوجزها فيما يلي:-

١-توطين العلم الإمامي:

من إحدى الإشكاليات الكبرى التي كانت تواجه المجتمع الشيعي اللبناني ، بعد المدارس الدينية الكبرى، وكثرة المعوقات التي تحول دون الالتحاق بها، وكان من أكثرها تعويقا للاتصال بها تلك المعاناة المالية التي لابد أن يتحملها الطالب وأهله طوال مدة طلبه العلم الإمامي ، لذا كان الدور الذي أنيط به علي فضل الله عند عودته من النجف أن ينقل معه هذه الرسالة في صورته وصورة مهدي شمس الدين ، وتم اعتماد ذلك على أنه بمثابة السفر إلى النجف أو إلى قم، فأنشأ فضل الله (المعهد الشرعي الإسلامي) وبدأ التدريس فيه، وأنشأ كذلك جمعية أسرة التآخي وحسينية الهدى ، ثم بدأت المدارس في الانتشار كما سيأتي تفصيل ذلك، كما تم اعتماد سياسة تعليمية تسهل الالتحاق بهذه المدارس ، وقامت هذه السياسة الجديدة على (٥٤):

أ/ زيادة المدارس ونشرها في الأرياف الشيعية والضواحي ، حيث يوجد شيعة كثيرون.

ب / تجهيز وظيفة أو رواتب للطالب.

ج/ قبول الطلبة من غير شرط مدرسي، أو شرط يتعلق بالسن.

وقد ساعدت هذه السياسة التعليمية على الخروج عن سيطرة الأهل وأفكارهم وأموالهم ، كما ساعدت كذلك على تكثير سواد الطلبة الجدد.

٢-تطوير العلم الإمامي:

كانت التقليدية والجمود الذي أصاب العلم الإمامي إحدى الإشكالات التي كان يبتغي التوجه نحو علاجها بتركيز شديد، ومما قاله الخميني في ذلك الشأن هو : (قدموا الإسلام للناس في شكله الحقيقي ، حتى لا يتصور شبابنا أن وظيفة رجال الدين أن يجلسوا في أحد أركان النجف أو قم لتدريس أمور الحيض والنفاس بدلا من شغل أنفسهم بالسياسة، ومن ثم يستنتج الشباب أنه يجب فصل الدين عن السياسة(٥٥).

وسعى المعهد الشرعي الإسلامي إلى إخراج العلم الإمامي بلبنان من شرنقة العائلات الدينية التقليدية، ورسم صورة

جديدة جلية لرجل الدين، ، تخرجه من شكل (الشحاذ) العاطل عن العمل، أو واعظ الناس (تلك المواعظ التقليدية) وحدثهم عن الصلاة والصوم، ومرغبهم في الجنة، إلى صورة مختلفة تماما فيها الولوج إلى دور الولاية العامة، والى محل الصدارة في ميادين النظر والعمل كافة، فاقبل على المعهد الشرعي الإسلامي طلاب حرص بعضهم حرصا شديدا على الظهور بمظهر محصلي العلم (العصري) وعلى النجاح أو التفوق في مضماره، ورمي الطلاب ومرشدوهم من وراء ذلك إلى رفع ما لحق رجل الدين التقليدي من ازدراء والى محو وصمة البطالة والفراغ والجهل عنه، فلايؤول ذلك إلى نفضه الغبار عن دوره فحسب ، بل تحل قوة العلم في دعوته وفي كلامه ومواقفه، ويشق الطريق أمام المحتذين به مثلا والمقتدين به مرشدا، فيتكاثر عدد السالكين طريق علوم الدين. وجمع طلاب المعهد بين التحصيل الديني وبين أنشطة الحياة العادية ووجوهها. ومثل هذا الجمع ضروري وحيوي للدعوة لحزبها(٥٦)

وقد صب هذا التطور للتعليم الديني في مجرى تحقيق الهدف الأساسي من تحويل المجتمع اللبناني الشيعي إلى دولة شيعية قد تتوافق بداياتها مع البدايات الإيرانية، فلا تقتصر السياسة على الوجه المتصل! تعد الجسم الديني بغية تأطير (المجتمع الإسلامي) وقيادة المعقل الشيعي، فما العلماء والطلبة من بعدهم إلا المبلغون عن التراث الشيعي. وللعلماء والمبلغين والدعاة دور خطير، وأنيط بهم نقل العلم الإمامي أو الإدلال إليه، فكان التشيع الإمامي بين أولى الفرق التي برعت في إعداد الدعاة وتنشئتهم ووضع رسوم عملهم .

وكان لابد لهذا التطور بعد هذا التأطير للمجتمع الشيعي من أن يصب في مجرى آخر للالتقاء مع حركة الصدر من أجل الثورة بعد التنشأة الثورية ويقول الشيخ حسين منتظري في لبنان (إن الحوزات العلمية على مدى العصور كانت منطلقا للثورات ضد الظالمين ، فهي قاعدة انطلاق لانتصار الإسلام والمسلمين في كل العالم ،ومعين للطلبة الذين يشتركون في العمليات الجهادية).

وقد تم التوسل برباط العلم الإمامي الذي ينبغي أن يتعالى على الأقوام والأهل واللغات ،وأن يلحق المدارس الدينية والحوازات بـ (خط الإمام) وحملة العلم واصطحابه على العمل، ووحدت بين العمل وبين الحرب والقتال والشهادة، فاستعادت من غير ملل ولا خشية من التكرار المقارنة التي عقدها التراث الإمامي بين حبر العلماء ، ودم الشهداء، ومزجت بينهما وجعلت مزاجهما عنوانا قاطعا على وحدة الشخصية الإسلامية وتفردها (حسب وجه النظر الشيعية الإمامية) ، فتحول عالم الدين إلى أحد وجهين متلازمين لكل مناضل إسلامي (طالب علم ومجاهد مقاتل). فإذا اجتمع العمل والقتال والشهادة في شخص واحد ارتفع الشخص إلى مرتبة الولاية والمثال، وكما قال أحد شبابهم: (لابد للعمل من جهاد يكمله ويتكامل معه) (٥٧). لهذا فقد افتخر محمد حسين فضل الله بأن هذا الجيل الذي يمثله حزب الله قد تربى على يديه. وفي هذه النقطة قد اتفق فضل الله مع الصدر في نقطة الانطلاق التي هي مدار حديثنا . . . شعر الأمريكيون والاوربيون بالخطر فكان تشكيل القوات الأجنبية لحسم الصراع لصالحهم.

وأتت القوات المتعددة الجنسيات لتنفيذ هذا الهدف وذلك باباحة لبنان أرضا ومجتمعا، ولكن وقعت العلميات التي قام بها حزب الله ضد الأهداف الأمريكية والفرنسية بمساندة الحرس الثوري الإيراني . ونسبة لكل ما تقدم كان الإسلاميون الشيعة في الصفوف الأولى من كل أعمال الكر والهجوم على العدو (المشترك) القوات الإسرائيلية وعلى الوحدات الأمريكية والفرنسية ، وعلى القوات اللبنانية وعلي الجيش اللبناني ، وعلي المواطنين اللبنانيين المسيحيين والمواطنين الأجانب وعلى جيش لبنان الجنوبي وعلى السفارات الأجنبية والعربية وعلى القوات الدولية وعلي بعض المواطنين اللبنانيين المسلمين الذين يخالف هواهم ومشاربهم الإسلام ، وعلى المراقبين السوريين الذين سبق قدومهم الانتشار السوري في بيروت أو آخر فبراير ١٩٨٨م ، وعلي مسلمي (أمل) بالضاحية الجنوبية في صيف ١٩٨٧م ، وعلى المسلحين الفلسطينيين المتحالفين مع (أمل) في حروب المخيمات الطويلة (١٩٨٥ ١٩٩٠م) فهؤلاء كلهم كانوا أو مازالوا هدفا لأعمال الخمينيين الحربية، تسهم حربهم في إنشاء الجيب الإسلامي الإيراني وفي إطالة الأمد الذي يحتاج إليه أصحابه من أجل إرسائه على أسس يظنونها ثابتة.

فالدور الذي تطلع به هذه الحرب الكثيرة الوجوه في الوصول بمآرب السياسة الإيرانية إلى غاياتها الاقليمية والدولية، تطلع بدور آخر لا يتم الدور الأول إلا به، وتشييد أبنية المجتمع الإسلامي الذي تتعهده ولاية الفقيه ويتعهده وكلاؤه.

بهذه البدايات المتفجرة بدأ حزب الله إثبات وجوده في الساحات اللبنانية وعلى الجبهة الأخرى كانت سوريا على الخط اللبناني الساخن ، حيث استخدمت سوريا حزب الله كما استخدمت أمل من قبل.

وهكذا وبالرغم من كل التناقض على الساحة اللبنانية افلح حزب الله في أن يقف سداً قويا أمام القوى الاستعمارية والتوسعية في لبنان. محولاً كل عوامل الضعف الى عوامل قوة

الهوامش ومراجع البحث

١- د. فاطمة بدوي ، الحرب والمجتمع والمعرفة ، الحرب الأهلية وتغير البنى الاجتماعية والعقلية في لبنان ، دار الطليعة بيروت ١٩٩٤م ، ص ١٩ ١١٨.

٢- ألبير منصور، الانقلاب على الطائف ، دار الجديد بيروت، ١٩٩٣، ص ٥١-٥٧.

٣- أحمد الكاتب ، تطور الفكر السياسي الشيعي ، دار الجديد ، بيروت ١٩٩٨،ص٣٨٧-٣٨٥.

٤- بديع جمعة وأحمد الخولي، تاريخ الصفويين ، دار الرائد العربي، بيروت ١٤٠٨هـ ، ص ٥٥.

٥- محمد عبده، مائة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية، منشورات بحسون الثقافية، بيروت ١٤٠٤هـ ، ص ٧٧-١٢٥.

٦- مجلة المقاومة العدد ٤٠، وهي مجلة شهرية تصدر في مصر ، تعنى بشئون ,أخبار حزب الله ويصدرها د.رفعت سعيد، مركز يافا للدراسات والأبحاث، ص ٢٩.

٧- جريدة النهار ١٩٨٦/١٢/١١م.

٨- جريدة النهار ١٩٨٧/٣/٥م.

٩- د. أحمد إبراهيم خضر، حلقات الإسلام وكونجرس ، مجلة المجتمع الكويتية ، العدد٩٥٥،الحلقة ٣٨،ص ٦٤.

١٠- مجلة المقاومة العدد ٢٧، ص١٥-١٦.

١١- جريدة الشرق الأوسط العدد ٧٤٨٢،٩/٢/١٤٢٠هـ الموافق ١٩٩٩/٥/٢٤م.

١٢- جريدة الحياة العدد، ١٣٢٥٢،٦/٣/١٤٢٠هـ الموافق ١٩٩٩/٦/٢٠م.

١٣- محمد باقر المجلسي ، بحار الأنوار ج /١٢٢/٥٢.

١٤- أحمد الكاتب ، تطور الفكر السياسي الشيعي ، مصدر سابق، ص ٢٧١-٢٧٢.

١٥- نفس المصدر السابق، ص ٢٧٦.

١٦- نفس المصدر السابق ، ص ٢٩٢-٢٩٩ .

١٧- تحرير الوسيلة للخميني ، ج ١، ص ٤٨٢.

١٨- عبدالمنعم شفيق ، ويل للعرب (مغزى التقارب الإيراني مع الغرب والعرب) مكتبة الطيب القاهرة ، ١٤٠هـ ص ١٠٨- ١٣١.

١٩- ناصر عبدالله القفاري، أصول مذهب الشيعة، ج/٢/٨٤٧-٨٩٧،١٤١٤هـ.

٢٠- نفس المصدر .

٢١- الحكومة الإسلامية للخميني ، ص ٢٦-٢٧.

٢٢- نفس المصدر،ص ٤٨-٤٩.

٢٣- نفس المصدر ، ص ٤٨-١١٤

٢٤- د. ناصر الغفار، مصدر سابق ج٣/ص١١٦٩.

٢٥- عبدالهادي الفضلي، في إنتظار الإمام، ص٧٥-٦٧.

٢٦- وضاح شرارة، دولة حزب الله مصدر ساق ،ص٢٨٧.

٢٧- جريدة النهار ، ١٩٨٦/٥/١٤م.

٢٨- وجيه كوثراني ، المسألة الطائفة في لبنان، الخطاب السياسي والتاريخ،ص ٢٠-٢١.

٢٩- د. أحمد إبراهيم خضر، قراءة في فكر زعيم ديني، مجلة المجتمع ، العدد٩٥٣.

٣٠- شفيق عبدالمنعم، حزب الله رؤية مغايرة ، مجلة البيان، العدد ١٤٣.

٣١- جمال سند السويدي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية .ط١،١٩٩٦م ص ٧٥.

٣٢- القفاري ، أصول مذهب الشيعة ، تطور الفكر السياسي الشيعي، ص ٤١٩-٤٣٧-٨٩٤.

٣٣- الإمام الخميني ، الحكومة الإسلامية ، مصدر سابق ص ٨٠.
٣٤- د.موسى الموسوي ، الثورة البائسة ، ص ١٤٧.
٣٥- مهدي نور بخش، الدين والسياسة والاتجاهات الأيديولوجية في إيران المعاصرة - ضمن أيران والخليج والبحث عن الاستقرار، ص ٤٨.
٣٦ - الإمام الخميني ، الحكومة الإسلامية ، مصدر سابق ،ص٥٤.
٣٧ - محمد حسين فضل الله ، ولاية الفقه، ص٥٥.
٣٨- د.موسى الموسوي ، يا شيعة العالم استيقظوا ، ص ١٦-٢٠
٣٩ - نفس المصدر السابق ،ص٢٣.
٤٠ - نفس المصدر ،ص ٢٤.
٤١ - د.حسان حلاق ، التيارات السياسية في لبنان، الدار الجامعية،١٩٨٨م.
٤٢ - محمد جواد مغنية، الوضع الحاضر في جبل عامل ، ص ٥٨-٦٦.
٤٣ - عبدالمنعم شفيق ، المصدر سابق ، ص ١٠٦-١٠٧.
٤٤ - نفس المصدر ،ص١٠٨
٤٥ - عبدالله الغريب ، وجاء دور المجوس ، ص ٤٠٩-٤٢٢.
٤٦ - د. أحمد إبراهيم خضر ،الإسلام والكونجرس الأمريكي ، مجلة المجتمع ، العدد٩٥٧،ص٤٧.
٤٧ - وضاح شرارة، مصدر سابق ،ص ١٦٧-١٦٩.
٤٨ - نفس المصدر، ص ٧٩-٨٠.
٤٩ - شفيق عبدالمنعم ، مصدر سابق ، ص١١٠، عن حوار مع مجلة الوسط، العدد ٢٧٥ ٥ / ٥ /١٩٩٧م
٥٠ - نفس المصدر ، ص١١٠.
٥١ - حوار مع فضل الله أجراه جورج نادر ونشرت تحت عنوان:قراءة في زعيم ديني لبناني مجلة المجتمع ، الأعداد ٩٥٣،٩٥٤،٩٥٥.
٥٢ - نفس المصدر .
٥٣ - جريدة النهار اللبنانية ١٤/٥/١٩٨٦م.
٥٤ - وضاح شرارة ، مصدر سابق ،ص ١٣٥- ١٥٦.
٥٥ - الإمام الخميني، الدين والسياسة والاتجاهات الايديولوجية في إيران المعاصرة ، ص ٤٢.
٥٦ - وضاح شرارة ، مصدر سابق ،ص٨٨-٨٩.
٥٧ - نفس المصدر ،ص١٦٢.